وقد قال سبحانه فى أواخر سورة يوسف :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ[1] وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكَسْب منكم ، لكنه شاء أن يُنزل هذا الكتاب لتكسبوا أنتم :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

أى : أن أكثر مَنْ دعوتَهُم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك ؛ لأنهم لم يُحسنوا تأمُّل ما جاء فيه ؛ واستسلموا للهوَى . وأرادوا السلطة الزمنية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما جاء بهذا الكتاب هو الذى يعطيهم خير الدنيا والآخرة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

---

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣٨) ﴾ [يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . [ القاموس القويم ٢ / ٨٠ ] .

وكلمة « الله » عَلَمٌ على واجب الوجود ؛ مَطْمورة فيه كُلُّ صفات الكمال ؛ ولحظةَ أنْ تقول « الله » كأنك قُلْتَ « القادر » « الضار » « النافع » « السميع » « البصير » « المُعْطى » إلى آخر أسماء الله الحسنى .

ولذلك قال ﷺ : « كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبتر[1] »[2] .

لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه ؛ لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّر لك كُلَّ الأشياء ، ولم تُسخِّرْ أنت الأشياء بقدرتك .

ولذلك ، فالمؤمن هو مَنْ يدخل على أيِّ عمل بحيثية « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لأنه سبحانه هو الذى ذلَّلَ للإنسان كل شىء ، ولو لم يُذلِّلها لَمَا استجابتْ لك أيها الإنسان .

وقد أوضح الحق سبحانه ذلك فى أمثلة بسيطة ؛ فنجد الطفل الصغير يُمسك بحبل ويربطه فى عنق الجمل ، ويأمره بأن « ينخّ » ويركع على أربع ؛ فيمتثل الجمل لذلك .

ونجد البرغوث الصغير ؛ يجعل الإنسان ساهراً الليل كُلَّه عندما يتسلل إلى ملابسه ؛ ويبذل هذا الإنسان الجَهْدَ الجَهيد ليُمْسك به ؛ وقد يستطيع ذلك ؛ وقد لا يستطيع .

وهكذا نعرف أن أحداً لم يُسخِّر أىَّ شيئ بإرادته أو مشيئته ،

---

(١) البتر : استئصال الشيء قطعاً . وكل أمر انقطع من الخير أثره ، فهو أبتر . والبتر : أصله القطع الحسى والقطع المعنوى من الخير . [ لسان العرب ـ مادة : بتر ، القاموس القويم ٥٤/١ ] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده ( ٣٥٩/٢ ) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ، أو قال : أقطع » .

ولكن الحق سبحانه هو الذى يذلِّل كُلَّ الكائنات لخدمة الإنسان .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس]

وأنت حين تُقبِل على أىِّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : « باسم القادر الذى أعطانى بعض القدرة » .

وإنْ أقبلتَ على عمل يحتاج مالاً ؛ تقول : « باسم الغنى الذى وَهَبنى بعضاً من مال أقضى به حاجاتى » .

وفى كل عمل من الأعمال التى تُقبل عليها تحتاج إلى قدرة ؛ وحكمة ؛ وغنىً ، وبَسْط ؛ وغير ذلك من صفات الحق التى يُسخِّر بها سبحانه لك كُلَّ شىء ؛ فشاءتْ رحمتُه سبحانه أنْ سَهَّل لنا أن نفتتح أىَّ عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولذلك يُسَمُّونه « عَلَمٌ على واجب الوجود » .

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المُطْلق إلاَّ فيه ؛ فصارتْ كالاسم .

فالعزيز على إطلاقه هو الله . ولكنَّا نقول عن إنسان ما « عزيزُ قومه » ، ونقول « الغَنىّ » على إطلاقه هو الله ، ولكنْ نقول «فلان غنىّ » و « فلان فقير » .

وهكذا نرى أنها صفاتٌ أخذتْ مرتبة الأسماء ؛ وهى إذا أُطلقَتْ إنما تشير إليه سبحانه .

وعرفنا من قَبْل أن أسماء الله ؛ إما أن تكون أسماءَ ذات ؛ وإما أن تكون أسماءَ صفات ؛ فإنْ كان الاسم لا مقابل له فهو اسمُ ذات ؛ مثل : « العزيز » .

أما إنْ كان الاسم صفةَ الصفة والفعل ، مثل « المُعز » فلا بُدَّ أن له مقابلاً ، وهو هنا « المُذِلّ » .

ولو كان يقدر أنْ يُعِزَّ فقط ؛ ولا يقدر أن يُذِلَّ لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ، ولا ينفع أحداً لَمَا استطاع أن يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أنْ يَبسُطَ ، ولا يقدر أن يقبض[1] لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكل هذه صفات لها مُقَابلها ؛ ويظهر فعلها في الغير ؛ فسبحانه ـ على سبيل المثال ـ عزيزٌ في ذاته ؛ ومُعِزٌّ لغيره ، ومُذِلٌّ لغيره .

وكلمة « الله » هي الاسم الجامع لكل صفات الكمال ، وهناك أسماء أخرى علَّمها الله لبعض من خلقه ، وهناك أسماء ثالثة سنعرفها إنْ شاء الله حين نلقاه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ[2] (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

ونلحظُ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العُلْوى أولاً ؛ ولم يتحدث عن الأرض ؛ فقال :

---

(١) قال الحليمي في معنى الباسط : أنه الناشر فضله على عباده يرزق من يشاء ويوسع ويجود ويُفضل ويمكّن ويُخوّل ويعطى أكثر مما يُحتاج إليه . وقال في معنى القابض : يطوى بره ومعروفه عمّنْ يريد ويُضيق ويُقتّر أو يحرم فيفتقر . ذكره القرطبي في كتابه « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » ( ١/٣٦٠ ) .

(٢) نضر الوجه : حَسُنَ وكان له رونق وبهجة . ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴾ [الإنسان] . أى : وأكسب الله وجوههم نضرة ، أى : حُسْنًا وبهجة وجمالاً . [ القاموس القويم ٢/٢٧١ ] .

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

وكلمة « رفع » إذا استعملتَها استعمالاً بشرياً ؛ تدلُّ أن شيئاً كان فى وَضْع ثم رفعتَه عن موضعه إلى أعلى ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف]

فقد كان أبَوا يوسف فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كَانَا فيه ، فهل كانت السماء موضوعة فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعها الله ؟ لا ، بل خلقها الله مرفوعة .

ورحم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذى قال : « لو قلت : سبحان الله الذى كبّر الفيل ؛ فهل كان الفيل صغيراً ثم كبَّره الله ؛ أم خلقه كبيراً ؟ لقد خلقه الله كبيراً . وإنْ قلت : سبحان الله الذى صغَّر البعوضة ؛ فهل كانت كبيرة ثم صغَّرها الله ؟ لا بل خلقها الله صغيرة » .

وحين يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

فهذا يعنى أنه خلقها مرفوعة ، وفى العُرْف البشرى نعرف أن مُقْتضى رَفْع أىِّ شىء أنْ تُوجَد من تحته أعمدة ترفعه .

ولكن خلقَ الله يختلف ؛ فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق[1] ؛ ويظهر لنا أن السماء تنطبق على الأرض ؛ ولكنها لا تنطبق بالفعل .

---

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالارض فى رأى العين . وجمعه آفاق . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التكوير] . أى : ما بين السماء والأرض . [ القاموس القويم ١/ ٢٢ ] .

ولم نجد إنساناً يسير فى أىِّ اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظَنُّ أنه من أعمدة رَفْع السماء ؛ وهى مَرْئية هكذا ؛ فهل هناك أعمدة غير مَرْئية ؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً ؟ .

وقد يكون وراء هذا الرَّفْع أمر آخر ؛ فقد قلنا : إن الشىء إذا رُفع ؛ فذلك بسبب وجود ما يُمسكه أو ما يَحْمله ؛ وسبحانه يقول فى أمر رفع السماء :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

فإذا كانت مَمْسُوكة من أعلى ؛ فهى لا تحتاج إلى عَمَد ، وقوله الحق : ( يمسك ) يعنى أنه سبحانه قد وضع لها قوانينها الخاصة التى لم نعرفها بَعْدُ .

وقد قام العلماء المعاصرون بمَسْح الأرض والفضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا عَمَداً ترفع السماوات أو تُمْسكها .

والمهندسون يتبارَوْنَ فى عصرنا ليرفعوا الأسْقُفَ بغير عَمَد ؛ لكنهم حتى الآن ؛ ما زالوا يعتمدون على الحوائط الحاملة .

وهكذا نعلم أنه سبحانه إمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدقّ وألطفَ من أنْ تراها أعيننا ؛ ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

و « عَمَد » اسم جمع - لا جمع - ومفردها «عمود» أو «عِماد».

وقد جاءتْ هذه الآية بمثابة التفسير لِمَا أُجمل في قول الحق سبحانه في سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل ؛ فأوضح لنا أنه :

﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

أي : لا ترونها أنتم بِحُكْم قانون إبصاركم . ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ؛ لأن العينَ وسيلة من وسائل الإدراك ، ولها قانون خاص ؛ فهي ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

هذا بدليل أنك إذا نظرتَ إلى إنسان طوله متْران يتحرك مُبْتعداً عنك ؛ تجده يَصْغُر تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك ؛ لكنه لا يتلاشى بالفعل .

وهذا معناه أن قانون إبصارك مَحْكوم بقانون ؛ له مدىً مُحدّد .

وهناك قوانين أخرى مثل : قانون السمع ؛ وقانون الجاذبية ؛ وقانون الكهرباء ؛ وكلها ظواهر نستفيد بآثارها ، ولكنّا لا نراها ، فلا تعجب من أن يوجد شيء لا تدركه ؛ لأن قُوَى إدراكك لها قوانين خاصة .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق ذلك بأن يجعل ما يكتشفه العلماء في الكون من أشياء وقُوىً لم تكُنْ معروفة من قبل ؛ ولكننا كنا نستفيد منها دون أن ندري ؛ مما يدلُّ على أن إدراك

الإنسان غَيْرُ قادر على إدراك كل شيء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عَمَد نراها ؛ قد يعنى وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا ؛ أو هى مرفوعة بغير عَمَد على الإطلاق .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ② ﴾ [الرعد]

هو كلام خبرى ، والمثل من حياتنا حين تقول لابنك : « أنا خارج إلى العمل ؛ وذاكر أنت دروسك » ، وبذلك تكون قد أوضحت له : « ذاكر دروسك » وهذا كلام خبريّ ؛ لكن المراد به إنشائيّ .

وإبراز الكلام الإنشائى فى مَقَام الكلام الخبرى له مَلْحظ ، مثلما تقول : « فلان مات رحمه الله » وقولك « رحمه الله » كلام خبريّ ؛ فأنت تخبر أن الله قد رحمه .

على الرغْم من أنك لا تدرى : هل رحمه الله أم لا ؛ ولكنك قلت ذلك تفاؤلاً أن تكون الرحمةُ واقعةً به ، وكان من الممكن أن تقول : « مات فلان يا ربِّى ارحمه » ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة .

كذلك قول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ② ﴾ [الرعد]

أى : دَقِّقوا وأمعِنُوا النظر إليها ، وابحثوا فيما يعينكم على ذلك إن استطعتم ، وإذا لفتَكَ المتكلم إلى شيء ليُحرِّك فيك حواسَّ إدراكك ؛ فمعنى ذلك أنه واثقٌ من صَنْعته .

والمثل من حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنزَّه عن أن يكون له مثل ـ حين تدخل لتشترى صُوفاً ؛ فيقدم لك البائع قماشاً ؛ فتسأله : « هل هذا صوف مائة فى المائة ؟ » فيقول لك البائع : « نعم إنه صوف مائة فى المائة ، وهاتِ كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى بنفسك » .

ويوضِّح الحق سبحانه هنا : أن السماوات مرفوعة بغير عَمَد ؛ وانظروا أنتم ؛ بمَدِّ البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد ، وضمان عدم وجود أعمدة مُتحقِّق لك ولغيرك على مدى أُفُق أيٍّ منكم .

ولكُلِّ إنسان أُفُقه الخاص على حسب قدرة بصره ، فهناك مَنْ تنطبق السماء على الأرض أمام عيونه ؛ فنقول له : أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر .

فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفى التعبير اليومى الشائع يقال : « فلان ضَيِّق الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميْه » .

ولقائل أن يقول : إن هذا يحدث معى ومع مَنْ يعيشون الآن ؛ ولا أحد يرى أعمدة ترفع السماوات ؛ فهل سيحدث ذلك مع مَنْ سيأتون من بعدنا ؟

ونقول : لقد مسحتْ الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجى كل مساحات الأرض ؛ ولم يجد أحدٌ أية أعمدة ترفع السماء عن الأرض .

وهذا دليل صدق القضية التى قالها الحق سبحانه فى هذه الآية :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

والسماوات جمع « سماء » وهى كل ما عَلَاك فأظلَّك ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]

ونعلم أن المطر إنما نزل من السُّحُب التى تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة فى السماء ، وإذا أُطلقتْ السماء انصرفت إلى السماء العليا التى تُظلِّل كل ما تحتها .

وحين أراد الناس معرفة كُنْه السماء ، وهل لها جِرْم[1] أم ليس لها جِرْم ؛ وهل هى امتداد أجواء وهواء ؟ لم يتفق العلماء على إجابة.

وقد نَثَر الحقُّ سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته . وأدلة حكمته ، وأدلة صَنْعته فى الكون ؛ ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة فى نفسك أيضاً ؛ وهو القائل سبحانه :

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون فى كل يوم شيئاً جديداً وسراً عجيباً ، سواء فى التشريح أو علم وظائف الأعضاء .

وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التى كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرَك بعضها الآن ، ويُدرَك بعضها لاحقاً.

---

(١) الجرم : الجسم والبدن . [ لسان العرب ـ مادة : جرم ] . والمقصود هل السماء لها أبعاد محددة تأخذ حيزاً كالأجسام ، أم هى مجرد فضاء وهواء ؟

وإدراكُ البعض للمجهول فى الماضى يُؤذِن بأنك سوف تدرك فى المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومعنى ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

أن الرؤية لا تنتهى ؛ لأن « السين » تعنى الاستقبال ، ومَنْ نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ، ونحن نقرؤها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاءٌ جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة .

وسبحانه القائل :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وأنت حين تفكر فى خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة غايةً فى الضخامة ؛ ويكفيك أن تتحيّر فى مسألة خَلْقك وتكوينك ؛ وأنت مجرد فرد محدود بحيِّز ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فما بَالُك بخَلْق السماوات والأرض التى وُجدَتْ من قَبْلك ، وستستمر من بعدك إلى أن تنشقَّ بأمر الله ، وتتكسر لحظتها النجوم .

ولا بُدَّ أن خَلْق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ،

---

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . وجمعه آفاق . [ القاموس القويم ١/٢٢ ] . بتصرف . والأفْق والأفُق : ما ظهر من نواحى الفَلَك وأطراف الأرض ، وكذلك آفاق السماء نواحيها . [ لسان العرب ـ مادة : أفق ] .

فالسماوات والأرض تشمل الكون كله .

وحين تُحدِّث عنها إياك أن تخلط فيها بوهمك ؛ أو بتخمينك ؛ لأن هذه مسألة لا تُدرك في المعامل ، ولا تستطيع أن تُجرِي تحليلات لمعرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض .

ولذلك عليك أنْ تكتفي بمعرفة ما يطلبه منك مَنْ خلقها ؛ وماذا قال عنها ، وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ؛ فلا داعي أن تُرهق نفسك فيهما :

**الأمر الأول** : هو كيفية خَلْق الإنسان ؛ وهل كان قرداً في البداية ثم تطوَّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك ، فلا تتدخل فيها بافتراضات تُؤدي بك إلى الضلال .

**والأمر الثاني** : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى وقائع .

وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١)﴾ [الكهف]

---

(١) قفا الشيء يقفوه : مشى خلفه أو تبعه. وقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] . أي : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم . [ القاموس القويم ٢/١٢٨ ] .

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن تعلم شيئاً عن تفاصيل هذين الأمرين لأشهد خلقهما لبعض من البشر ، لكنه سبحانه نفى هذا الإشهاد ؛ لذلك ستظل هذه المسألة لُغْزاً للأبد ؛ ولن تَحُلَّ أنت هذا اللُّغْز أبداً ؛ بل يحلُّه لك البلاغ عن الحقِّ الذى خلق .

وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونفخَ فيك من روحه ، فاسمع منه كيفية خَلْقك وخَلْق الكون كله .

ويدل الإعجاز البيانى فى القرآن على أن بعضاً ممَّنْ يملكون الطموح العقلى أرادوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صحَّة تلك النظريات التى افترضها بعض من العلماء عن خَلْق الإنسان وخَلْق الأرض ، فيبلغنا الحق سبحانه مقدَّماً ألاَّ نصدقهم .

ويقول لنا :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

والمُضِلّ هو مَنْ يُضِلُّك فى المعلومات ، هكذا أثبت لنا الحق سبحانه أن هناك مُضلِّين سَيأتون ليقولوا كلاماً افتراضياً لا أساسَ له من الصِّحة .

وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصَّصْ عليه ، ليعرف كيفية خَلْق الشمس أو الأرض ، ومَنْ يدعى معرفة ذلك فهو من المُضلِّين ؛ لأنهم قَفَوْا ما ليس لهم به علم .

---

(١) العضد : المعاون المساعد . وهو فى الأصل : ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل مجازاً للمعين المساعد . قال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥) ﴾ [القصص] أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [ القاموس القويم ٢/٢٤ ] .

وما دام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فنحن نُصدِّق ما قال .

وقد أثبتت التحليلات صدْق ما قاله سبحانه عن خَلْق الإنسان ، فسبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق السيد لهذا الكون وهو الإنسان ، وكل الكون مُسخَّر للإنسان ويخدم هذا الخليفة فى الأرض ، وكل ما فى الكون يسير بنظام وانتظام .

والمُتمرِّد الوحيد فى الكون هو الإنسان ، فيأتى الحقُّ سبحانه إلى هذا المتمرِّد ؛ ليجعل الآية فيه ؛ وليثبت صدْق الغيب فى الأرض

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين ؛ والإنسان من نسل آدم الذى سوَّاه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة ؛ من المُدبِّرات أمراً ومن الحفَظة ؛ أنْ تسجدَ للإنسان.

وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان . هذا الذى بدأت حكاية خَلْقه من تراب ، ثم خُلط التراب بالماء ؛ ليصير طيناً ؛ ثم تُركَ قليلاً ليصير حَمَأً مَسْنوناً[1] ؛ ثم يجفّ الحَمأ المسنون ليصير صلْصالاً كالفخَّار ؛ ثم ينفخ فيه الحق بالروح .

فإذا ما انتهى الأجل ؛ فأول ما يُنقض هو خروج الروح ؛ ثم يتصلَّب الجثمان ، وبعد أن يُوارَى التراب يصير الجثمان رِمّة[2] ؛ ثم

---

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقْل . [ القاموس القويم ١/٣٣١ ] .

(٢) رمَّ الميت : بلى جسمه . قال تعالى : ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس] . والرميم : الخلق البالى من كل شىء . [ لسان العرب ـ مادة : رمم ] .

يتسرَّب الماء الموجود فى الجثة إلى الأرض ، وتبقى العظام إلى أن تتحول هى الأخرى إلى تراب .

وهكذا يتحقق نَقْضُ كل بناء ؛ فما يُبنى فى نهاية أىِّ بناء هو ما يُنقض أولاً ، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق سبحانه حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به سبحانه عن كيفية الخلق .

وعندما يُخبِرنا الحق سبحانه أن كيفية خَلْق السماوات والأرض ليست فى مُتَناولنا ؛ فقد أعطانا من قبل الدليل على صدْق ما جاء به ، فيما أخبرنا به عن أنفسنا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

وكلمة « السماوات» فى اللغة جمع ، وفى آية أخرى ، يقول سبحانه :

﴿ فَقَضَاهُنَّ[1] سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة : الشمس ، والقمر ، وعطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمُشْترى .

---

(١) قضاهن : خلقهن وأوجدهن وأنفذ إرادته بخلقهن. [ القاموس القويم ٢/١٢٢ ] . وللقضاء معان كثيرة ذكرها السيوطى فى ( الإتقان ٢/١٢٨) منها : الفراغ ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ .. ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [البقرة] . ومنها : الفصل ، فى قوله تعالى : ﴿ لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام] . ومنها العهد : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص] .

وشاء سبحانه أن يُكذِّب هذا القول وأصحابُه أحياء ؛ فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو ؛ وكان فى ذلك لَفْتة سماوية لمَنْ قالوا : إن المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحُسْن نية وبرغبة فى رَبْط القرآن بالعلم ؛ لكنهم نَسُوا أن يُدقِّقوا الفهم لمَا فى كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب كلها زينة السماء الدنيا[1] ، فما بالُنَا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ②﴾ [الرعد]

وهذه قضية هى أهمُّ قضية كلامية ناقشها علماء الكلام ؛ قضية الاستواء والعرش ، وحتى نفهم أىَّ قضية لا بُدَّ أن نُحلِّل ألفاظها لنتفقَ على معانيها ، ثم نبحثها جملة واحدة ، لكن أن نجلس لنتجادل ونحن غير مُتواردِين ومتفقين على فَهْم واحد ؛ فهذا أمرٌ لا يليق .

ولننظر الآن معنى « الاستواء » ومعنى « العرش » ، ونحن حين نستقرىء كلمة « استوى » فى القرآن نجدها قد وردتْ فى آيات متعددة .

وجاءت مرّة واحدة بمعني الاستواء . أى : النضج ، فى قول الحق سبحانه :

---

(١) يقول تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ⑥﴾ [الصافات] . ويقول أيضاً : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⑫﴾ [فصلت] .

﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ[1] وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا .. (١٤) ﴾ [القصص]

أى : أنه قد بلغ نُضْجه الكمالىّ ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُبقى نوعه ، وإنْ تزوج فلسوف يُنجِب مثله ؛ وهذا استواء لمخلوق هو الإنسان .

ومرة أخرى يقول القرآن :

﴿ ذُو مِرَّةٍ[2] فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ﴾ [النجم]

والمعنى هنا هو : صعد ؛ والمقصود هو صعود محمد و جبريل عليهما السلام إلى الأفق الأعلى .

وهناك قوله الحق :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. (٢٩) ﴾ [البقرة]

أى : أنه سبحانه قد استوى إلى السماء ؛ وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مُساوٍ لاستواء البشر ؛ لأننا قُلْنا من قبل : إن كل شيء بالنسبة لله إنما نأخذه فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

---

(١) الأشد : مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة . قال الأزهرى : الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة معان يقرب اختلافها . فقوله فى قصة يوسف : ﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. (٢٢)﴾ [يوسف] فمعناه الإدراك والبلوغ . وأما قوله فى قصة موسى : ﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ .. (١٤)﴾ [القصص] أى : أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهى شبابه . وأما قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ..(١٥)﴾ [الأحقاف] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله . [ لسان العرب ـ مادة : شدد ] . بتصرف .

(٢) المرة : القوة والشدة وحصافة الرأى وقوة الخلق ، مأخوذ من إمرار الحبل وإحكام فتله . قال تعالى : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم] ، وهو وصف لجبريل عليه السلام بأنه ذو قوة . [ القاموس القويم ٢/٢٢٣ ] .

وبذلك يكون استواؤه سبحـانه إلى السماء هو استواء يليق بذاته، والاستواء المطلق شيء مختلف عن الاستواء على العرش .

وهكذا نجد استـواءً لغير الله من إنسان ؛ وهناك استـواء لغير الله من إنســان ومن ملك ؛ وهـناك اسـتـواء من الله إلى غـيـر العـرش . وبجانب ذلك هناك استواء على العرش .

وقد وردَ الاستـواء على العرش فى سبعـة مواقع بالقرآن ؛ فى : سـورة الأعـراف ؛ وســورة يونس ؛ والرعـد ، وطه ، والـفـرقـان ، والسجدة ، والحديد .

وورد ذكر العـرش فى القرآن بالنسـبة لله واحـداً وعشـرين مرَّة، وورد بالنسبة لبلقيس أربع مرات ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا .. (٣٨) ﴾ [النمل]

ثم قال :

﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. (٤١) ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ .. (٤٢) ﴾ [النمل]

وبالنسبة ليوسف قال سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وإيَّاك أن تأخذ الاسـتواء بالنسبـة لله على أن معناه « النُّضْج » ؛

لأن النُّضْجَ إشعارٌ بكمالٍ سَبَقه نَقْصٌ .

ولذلك نجد العلماء المُدقِّقين قد علمُوا أن ذكْر استواء الله على العرش قد ورد فى سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا :

وَذِكْرُ اسْتواء اللَّه فِى كَلِمَاته على ... العَرْشِ فى سَبْعِ مَوَاضِع فَاعْدُدِ

فَفِى سُورَةِ الأعْرَاف ثُمَّةَ يُونُسَ ... وَفِى الرَّعْدِ مع طَــه فَلْعَدِّ أكِّـدِ

وَفِى سُورَةِ الفُرْقَانِ ثُمَّـةَ سَجْدة ... كَذَا فِى الحديدِ افْهـمْهُ فَهْم مُؤيِّدِ

وقالوا فى المعنى :

فَلَـهُمْ مَـقَــالاتٌ علَـيْـهَا أرْبـعـة ... قَدْ حُـصِّـلَتْ لِلْفَـارسِ الطَّـعَّـانِ

وَهـى اسْـتـقرَّ وقَـدْ عَـلاَ ... وكذلكَ ارتفَع مَـا فِيـه مِنْ نُكْران

وَكَذاكَ قَـدْ صَعَد الذى هُوَ رَابِعٌ ... بِتـمَـامِ أمْـرٍ مِنْ حِمَى الرَّحْـمَانِ

والصـعـود إلى العـرش هو حركـة انتـقـال من وضع إلى وضع لم يَـكُنْ فيه .

وهكذا نجـد أن المـعـانى التى تتـمشَّى مـع الاستـواء فى عُـرْفنا البشرى لا تتناسب مع كمال الله .

واختلف العلماء : قال واحد منهم : « سآخذ اللفظ كما قاله الله » .

ونردُّ على هذا بسؤال : وهل يمكنك أن تُغيِّبَ :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

طبـعاً ، لا أحـدَ يسـتطيع ذلك ، وعليك أن تأخـذ كل فَـهْمٍ لشىء يخصُّ الذات العلية فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪ ﴾ [الشورى]

ولذلك نجد أهل الدِّقة[1] يقولون : « الاستواء معلوم ، والكَيْف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

فنحن نعلم معنى الاستواء ؛ ولكن كيفية استواء الله مجهولةٌ بالنسبة لنا ، والسؤال عن الكيفية بدعة ؛ لأن المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم أنهم سألوا عن كثير من الأمور .

وهناك آيات متعددة[2] تبدأ بقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ .. ⑱⑨ ﴾ [البقرة]

وكان السؤال وارداً بالنسبة لهم ؛ لكنهم بملكتهم العربية الفطرية قد فَهِموا الاستواء كشيء يناسب الله ، فلَمْ يسألوا عنه .

وجاء السؤال من المتأخرين الذين تمحَّكوا ، فقال واحد : سآخذ الألفاظ بمعناها ؛ فإن قال : إن له صعوداً ؛ فهو يصعد ، وإنْ قال : إن له استواء فهو يستوى .

ولمَنْ قال ذلك نردُّ عليه : إن ما تقوله صالحٌ للأغيار ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذى يُغيِّر ولا يتغيَّر . وإذا سألتَ عن معنى كلمة « استواء » فهو « استتب له الأمر » . وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه ؟

---

(١) رُوى هذا عن الإمام مالك بن أنس .

(٢) ورد هذا فى ١٥ موضعاً فى القرآن : [ البقرة : ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ] ، [ المائدة : ٤ ] ، [ الأعراف : ١٨٧ ] ، [ الأنفال : ١ ] [ الإسراء : ٨٥ ] ، [ الكهف : ٨٣ ] ، [ طه : ١٠٥ ] ، [ النازعات : ٤٢ ] .

ونقول : نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخَلْق والكَون ؛ فسبحانه موصوفٌ أنه خالق قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ومُعزٌّ قبل أن يخلق مَنْ يُعزّه ، ومُذلّ قبل أنْ يخلق مَنْ يُذلّه ، وله سبحانه صفاتُ الكمال المُطْلق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق :

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

وكذا نؤمن بأن صفة الخَلْق كانت في ذاته قبل أن يخلق خَلْقه، وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التي كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلّق ؛ فأوجد هو سبحانه المُتعلّق ، وهكذا استتبَّ له الأمر سبحانه .

إذن : إذا ذُكر استواءُ الله ، فهذا يعني تمامَ المُرَاد له ، فصار للصفات التي كانت فيه ، وليس لها مُتعلَّق أو مَقْدُور ؛ مُتعلّق ومَقْدور .

وإذا وُجِدَتْ هذه الصفة في البشر مثل بلقيس التي وصفها سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

فهي تختلف عن صفة الله ؛ لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد ينشغل هذا الشخص في معارك وحروب ، ثم يستتبّ له الأمر .

وهكذا يختلف استواءُ الله عن استواء خَلْق الله ، وإذا ذُكر استواء

الله على العرش ؛ فنحن نُنزِّه الله عن كل استواء يناسب البشر ، ونقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

واستواؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره في توقيته المراد له يكون تمام الأمر ، وتمام الأمر استواؤه ، أما كلمة « العرش » فنحن نجدها في القرآن بالنسبة لله .

إما مُضَافاً لاسم ظاهر :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ .. (١٧) ﴾ [الحاقة]

وإما مُضَافة للضمير المخاطب أو الغائب :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

وإما مُضَافاً للتنسيب :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢) ﴾ [الرعد]

والتسخير هو طلب المُسخِّر من المُسخَّر أن يكون كما أراده تسخيراً ، بحيث لا تكون له رغبة ، ولا رأي ، ولا هَوَى ، والتسخير ضدُّه الاختيار .

والكائن المُسخَّر لا اختيارَ له ، أما الكائن الذي له اختيار فهو إنْ شاء فعل ، وإنْ شاء لم يفعل .

وقُلْنا قديماً : إن الحق سبحانه قد خَيَّرَ الإنسان :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وبذلك قَبِل الإنسان أداء الأمانة وَقْتَ أدائها ؛ لا وَقْتَ تحمُّلها ، ووقت الأداء غَيْر وقت التحمُّل ، وضربتُ المَثَل بمَنْ يقول لصديقه : « عندى ألف جنيه ؛ وأخاف أنْ يضيعوا منِّى ؛ فاحفظهم لى معك ؛ وحين أحتاجهم اعْطِهمْ لى » .

ويقول الصديق : « هَاتِ النقود وسأعطيها لك وقت أنْ تطلبها » .

والصديق صادقٌ وقت تحمُّل الأمانة ؛ لكن ظروفاً تمرُّ عليه ، فيتصرَّف فى هذه الأمانة ؛ وحين يطلبها صاحبها ؛ قد يعجز حامل الأمانة عن رَدِّها ، وهو بذلك ضَمِنَ نفسه وقت التحمُّل ؛ لكنه لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظةَ أنْ طلب منه ذلك : « أرجوك ، ابتعد عنِّى لأنِّى لا أضمن نفسى وَقْت الأداء » .

وقد أبَت السماء والأرض والجبال تحمُّل الأمانة وَقْت عَرْضها ؛ وقَبِلتْ كل منهم التسخير ؛ فلا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها قدرة الاختيار ، ولا هَوى لأىٍّ منها فى هذه القدرة ؛ مثلها فى ذلك مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان ؛ ولم نجد فساداً فى الأرض

---

(١) أشفق من الشىء : خشى أن يناله منه مكروه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] . أى : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [ القاموس القويم ١/٣٥١ ] .

قد نشأ من ناحية المُسخَّرات .

أما الإنسان فـقد قَبِل تحمُّل الأمانة ؛ لأن له عقـلاً يُفكِّر ويختار ؛ ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد فى الكون ، ولو أقبل الإنسان على العمل وكـأنه مُسخَّر خـاضع لمنهج الله ؛ لاستقام عـمل الإنسان مثلما يستقيم عَمَلُ كل الكائنات المُسخَّرة بأمر الله .

فإنْ أردتم أن تستقيمَ أموركم فيما لـكم فيه اختيار ، فطبِّقوا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا[1] فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وانظروا مـاذا يطلب الحق منكم فى منهـجه ، فـإنْ نفَّـذتم المنهج تَسْتقِمْ أموركم ، كما استقامتْ الكائنات المُسخَّرة .

ولا يأتى الخَلَل إلا من أنـنا نحن البـشـر نقوم ببـعض الأعـمـال باختيارنـا ، وتكون مخالفة لمنهج المُشرِّع ، أمـا إذا كنا نؤدى أعمالنا ونضع نُصْب أعيننا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾ [الرحمن]

فلسـوف تكون أعمـالنا مُطابِقـة لمنهج الله ، وسنجـد فى أعمـالنا ما يَسرُّنا مثل سرورنا حين نجد الأفلاك منتظمة بدقة وحساب .

إذن : فالفـساد لا يأتى إلا من الاختـيار غير المُـرْتجى لمنهج مَنْ

---

(١) طغى يطغى : تجاوز الحدّ . [ القاموس القويم ١/٤٠٢ ] .

(٢) القـسط : العدل. وقـسط يقسط : عـدل . وأقـسط : عدل وأزال الظلم والجـور [ القامـوس القويم ٢/١١٦ ] .

خلق فينا الاختيار ، وإن كنت تريد أن تكون مختاراً ؛ فعليك أن تلتزم بمنهج مَنْ خيَّرك .

ولذلك نجد الصالحين من خَلْق الله قد ساروا على منهج ربهم ؛ والتزموا باختيار مراد ربهم فيما لهم فيه اختيار ؛ فصاروا وكأنهم مُسخَّرون لمُرَادات الله .

وهؤلاء يسمُّونهم «العباد» لا «العبيد» ؛ فكل مملوك لله من العبيد ؛ آمن به أو كفر ؛ أطاع أو عصى ؛ أما العباد فَهُمْ مَنْ جعلوا مرادات الله هى اختيارهم ، يقول تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (٦٣) ﴾ [الفرقان]

هؤلاء هم مَن اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله .

ونجد الحق سبحانه يقول فى الملائكة :

﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾

[الأنبياء]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه فى حال الاختيار ؛ فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم ؛ لأنهم مَقْهورون بالتسخير ؛ بينما تتمتع أنت بالاختيار ؛ وآثرْتَ منهج ربك .

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

(١) الهَوْن والهُوَيْنا : التؤدة والرفق والسكينة والوقار . [ لسان العرب ـ مادة : هون ] .

﴿وَسَخَّرَ[1] الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان]

ولحظةَ تجد التنوين مثل « كلٌّ » فهذه يعنى كُلاً من السابق . أى : الشمس والقمر . أما الجَرْى إلى أَجَل مُسمًى ؛ فيقتضى منَّا أن نفهم معنى الجَرْى ؛ وهو تقليل الزمن عن المسافة .

فحين تريد الوصول إلى مكان مُعيَّن فقد تمشى الهُوَيْنا ؛ لتصلَ فى ساعة زمن ، وقد تجرى لتقطع نفس المسافة فى نصف ساعة ؛ والجَرْى بطبيعة الحال ملحوظ ممَّن يراك .

لكن : هل يرى أحدنا الشمس وهى تجرى ؟

لا ، لأنها تجرى فى ذاتها ؛ ويُسمَّى هذا النوع من الجرى « جرى انسيابى » . أى : لا تدركه بالعين المجردة ، وهناك ما يُسمَّى « انتقال قفزى » ، وهناك ما يُسمَّى « انتقال انسيابى » .

وانظر إلى عقارب الساعة ؛ ستجد عقربَ الثَّوانى أسرعَ من عقرب الدقائق الذى يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك ؛ وأنت ترى حركة عقرب الثوانى ؛ لأنها تتم قَفْزاً ؛ بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق ؛ لأنه يتحرك تبَعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة ؛ وكل جزئية فى حركة التُّرْس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تُرْس عقرب الثَّوانى ؛ والحركة القفزية لعقرب الثوانى تتحول إلى حركة انسيابية فى عقرب الدقائق .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف] . أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [ القاموس القويم ٣٠٦/١ ] .

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية فى عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من الحركة .

وحتى فى النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد عملية النمو غير ظاهرة لك ؛ لأن الكائن الذي ينمو إنما ينمو بقدر بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع فى اليوم كله .

وإن أردتَ أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت ترى الظل واضحاً ساعةَ سطوع الشمس ، ثم ينحسر الظل بانحسار الشمس .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان]

أى : أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر فى حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نُفرِّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ، وحين تقدمنا فى العلم نجدهم يقولون : « سنزيد من الحركة الانسيابية عن الحركات القفزية » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

والأجل هو المدة المحدودة للشيء ؛ وهى محدودة زمناً إنْ أردنا ظرف الزمان ؛ أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان .

والمقصود هنا بالأجل ؛ إما الأجل النهائى لوجود الشمس والقمر ؛ ثم إذا انشقتْ السماء كُوِّرتْ[1] الشمس ، وانكدرتْ[2] النجوم .

أو : أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومى .

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ؛ لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا فى بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ فى البناء .

فتطلع الشمس كُلَّ يوم من أحد هذه الطاقات ؛ فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها ، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمَّى أى يومياً .

ونُسمِّى نحن تلك المنازل « البروج » كبرج الحَمَل ؛ والجَدى ؛ والثور ؛ والأسد ؛ والسنبلة ؛ والقوس ؛ والحوت ؛ ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ، وغير ذلك ، ذلك أن كُلَّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة .

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق فى الكون ، مثلما يشعل البعض الحرائق فى الغابات ؛ فتحرق النار

---

(١) كوَّر الشيء : لَفَّه على شيء مستدير ، فيقال « كوَّر عمامته » : لفَّها على رأسه . وقوله : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ .. ۝﴾ [الزمر] . أى : يزيد الليل فيلتف على جزء من النهار وبالعكس . [ القاموس القويم ٢/١٧٧ ] .

(٢) قال تعالى : ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝﴾ [التكوير] . أى : تغيَّر لونها ولم يعد صافياً لامعاً ، أو تناثرت وتساقطت بسرعة كالصقور المنقضة على فرائسها عند قيام الساعة . [ القاموس القويم ٢/١٥٥ ] .

الأكسوجين الذى يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس ، ويحاول الغلاف الجوى أن يتوازن ، فيشُدّ كميات من الهواء من منطقة أخرى ، فيختلّ ميزان الطقس لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الذرية التى تُجريها الدول أعضاء النادى الذرى ؛ تلك التجارب التى تقوم بتفريغ الهواء ، فتجعل الطقس غَيْرَ مُسْتقر وغير منضبط ؛ وهذا ما يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة لمعرفة تقلُّبات الطقس .

وقد أوجز الشاعر تلك الأبراج فى قوله :

حَمَلَ الثورُ جَوْزَةَ السَّرطَانِ ... ورَعَى الليْثُ سُنْبلَ الميزَانِ

عَقْرب القَوْس جَدْى دَلْو وحُوت ... مَا عَرفْنَا منْ أمة السُّرْيَانِ

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رَفْع السماوات بغير عَمَد ، واستوائه على العرش ، وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجرى كُلُّ شىء لأجل مُسمّى .

وكُلُّ ذلك يتطلب تدبيراً للأمر بعد أن أبرز القدرة ؛ ثم يصون ذلك كله ، فكما قَدَّر فخلق ، فهو يُدبِّر بقيوميته ، فهو القائم على كل شىء ، وسبحانه كل يوم هو فى شأْن[1] .

(١) عن عبدالله بن منيب الأزدى قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] فقلنا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ؟ قال : «أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين» أورده ابن كثير فى تفسيره ( ٤/٢٧٣ ) .

وأقول هذا المثل لأوضح ـ لا لأُشبِّه فسبحانه مُنَزَّه عن التشبيه ـ ونحن نقول : فلان فكَّر أولاً ثم دبَّر ، والتفكير هو العملية التى تبحث فيها عن الشىء لإخراج المطلوب منه ؛ كأن تأتى بقليل من حبوب القمح لتفركه بيدك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذى يطلب منك أن تبحث وتُنقِّب إلى أن تصل إلى لُبِّ الأشياء . والتدبُّر يقتضى ألاَّ تقتنع بما هداك إليه فكرك فى نفس اللحظة ، ولكن أن تُمحِّص الأمر لترى ماذا سينتج عن تنفيذ ما وصل إليه فكرك ؟

فربما ما فكرتَ فيه يُسعِفك ويُعينك فى لحظتكَ الحالية ؛ لكنه سيأتى لك بعَطَبٍ بعد قليل .

والمَثَلُ الذى أضربه على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع المُبيدات الحشرية ؛ ولم يَفْطنوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل الحشرات الضارة وحدها ، بل تُسمِّم الطيور التى كانت تفيد الفلاح .

ووصل الأمر إلى حَدِّ تحريم استخدام هذه المبيدات ؛ وجاء هذا التحريم ممن تفاخروا من قَبْل على كل شعوب الأرض باختراعهم لتلك المبيدات ، فقد فَطِنوا إلى أنَّ ما جاءهم من خَير عن طريق تلك المبيدات هو أقلُّ بكثيرٍ من الضُّرِّ الذى وقع بسببها .

وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا اختراعهم لتلك المبيدات ؛ فقاموا بتصنيعها لفائدة عاجلة ، دون أن يلتفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان لا بُدَّ لهم أن يتدبروا الأمر ؛ لأن التدبُّر معناه النظر فى دُبُر الأشياء .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد]

أى : لا تنظر إلى واجهة الآية فقط ، بل انظر فى أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : « ثَوِّروا[1] القرآن » .

أى : استخرجوا منه الكنوز بالتدبُّر ؛ لأن التدبر يحمى من حماقة التفكر ، والمثل البسيط المتكرر فى بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض مِمَّا بَقِى فى الفم من بقايا .

ونجد من بين هذه البقايا بعضاً من « الفتافيت الصلبة بعض الشىء » ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور ، ونُفَاجأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض ؛ وحين يفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .

وأنت حين تمضمضتَ لم تلتفت إلا لنظافة الفَم من البقايا ، ولم تتدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرتَ ذلك لَقُمْتَ بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة ؛ ولَجعلْتَ صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من الحجم المعتاد والمُجهَّز لصرف المياه فقط .

---

(١) أورد ابن منظور فى لسان العرب حديث ابن مسعود : « أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين » قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه » [ مادة : ثور ] .

وهكذا نرى أن الفكر يحثُّك على أن تبحث عن مطلوب لك ؛ ولكن عليك أن تنظر وتُدقِّق : هل يحقق لك ما يقترحه عليك فكرك ؛ ما يفيدك أم ما يضرك ؟

هذا هو التدبُّر ، وهو ما نُسمِّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ② ﴾ [الرعد]

وتفصيل الآيات يعني أنه جعل لكل أمر حُكْماً مناسباً له . ودائماً أقول لمن يسألني عن فتوى ؛ ويُلِحّ أن تتوافق الفتوى مع مراده : « نحن لا نُفصِّل الفتوى من أجل هواك ؛ لأن ما عندي هي فتاوى جاهزة ؛ وعليك أن تضبط مقاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفصِّل لك الفتوى على هواك » .

أقول ذلك ؛ لأن المسألة ليست حياة تنتهي إلى العَدَم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيها على كل تصرُّف ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُورًا ㉓ ﴾ [ الفرقان ]

وهو القائل سبحانه أيضاً جَلَّ وعلا :

---

(١) الهباء : الغبار المتطاير في الجو . قال تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ⑥ ﴾[الواقعة] . أي : تراباً متطايراً هنا وهناك . ومثله قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ㉓ ﴾ [الفرقان] . أي : كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يُعتدُّ به ولا قيمة له . [ القاموس القويم ٢/٢٩٧ ] .

﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ[1] لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

ولذلك فعليك أن تُقبل على كل عمل وأنت مُوقن بأن هذا العمل لا ينتهى بتركك للحياة الدنيا ، ولكن لكل عمل آثاره فى حياة باقية ، وإذا كانت الدنيا تحمل لك راحة موقوتة أو تعباً موقوتاً ، فالراحة فى الآخرة باقية أبداً ؛ والتعب فيها غير مَوْقوت .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ[2] وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي[3] اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) ﴾

ويتابع الحق سبحانه سَرْد آياته الكونية فى هذه الآية :

﴿ مَدَّ الأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

يعنى أنها موجودة أمامك ومُمْتدة ، وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط ، ونقول : إن البَسْطَ تابع للمدِّ .

---

(١) عصفت الريح : اشتد هبوبها . والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شىء تمر عليه . [ القاموس القويم ٢/٢٣ ] .

(٢) الرواسى : الجبال ، لأنها تثبت الأرض فتستقر ولا تميل . [ لسان العرب - مادة : رسا ].

(٣) غشّيت الشىء تغشية إذا غطيته . [ لسان العرب - مادة : غشى ] قال ابن كثير فى تفسيره ( ٢/٥٠٠ ) : « أى : جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر » .

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا : ومن قال إن الأرض كُرَويّة ؟

إن الحق سبحانه قال : إنها مبسوطة ، وهو سبحانه الذى قال : إنه قد مَدَّ الأرض .

وقلتُ لهؤلاء العلماء : فَلْنفهم كلمة المَدِّ أولاً ، ولْنفهَمْ أيضاً كلمة « الأرض » وهى التى تقف عليها أنت وغيرك ، وتعيش عليها الكائنات ، وتمتد شمالاً إلى القُطْب الشمالى ، وجنوباً إلى القُطْب الجنوبى ، أيّاً ما كُنْت فى أىِّ موقع فهى مَمْدودة شرقاً وغرباً .

ومعنى :

﴿ مَدَّ الأَرْضَ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الرعد]

تعنى أنك إنْ وقفتَ فى مكان وتقدمتَ منه ؛ تجد الأرض ممدودة أمامك ؛ ولا توجد حَافّة تنتهى لها ، ولو أنها كانت مبسوطة لكانَ لها نهاية ، ولكانت على شكل مُثلَّث أو مُربّع أو مُسْتطيل ؛ ولكانَ لها حافة ؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة ، وهو يقول : « لقد وصلتُ لحافة الأرض ؛ وأمامى الفراغ » ولم يحدث أنْ قال ذلك واحد من البشر .

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً ؛ فسيظل ماشياً على اليابسة أو راكباً لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التى بدأ منها سَيْره .

وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة ، لا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث إذا مشيت مُتتبِّعاً أىَّ خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتهتْ إلى النقطة التى بدأت منها سَيْركَ .

وكان هذا هو الدليل الذى يقدمه العلماء على كروية الأرض ؛ قبل أن يخترعوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوى .

ونأخذ من قول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

معنًى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسانُ فى هذا الامتداد ؛ ومَنْ تضيق به الحياة فى مكان يُمكنه أن يرحلَ إلى مكان آخر ، فأرضُ الله واسعة ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]

ونعلم أن فساد العالم فى زمننا إنما ينشأ من فساد السياسات ، وزيادة الاضطرابات ، وذلك واحد من نتائج تعويق مَدِّ الأرض ، فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه ؛ يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة ، وتناسَى الجميع قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

فسبحانه قد سَخَّر الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام[1] ، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآنى ؛ سيظل العالم فى صراع ؛ وستظلُّ بعض من البلاد فى حاجة للبشر ، وبعض من البلاد فى ضيق من الرزق ؛ لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التى يعيشون عليها .

وستظل هناك أرض بلا رجال ؛ ورجال بلا أرض ، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد .

---

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلْق . وقال المفسرون : هم الجان والإنس . [ لسان العرب - مادة : أنم ] قال ابن كثير فى تفسيره ( ٤/٢٧٠ ) : « أى : كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات لتستقر لما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم فى سائر أقطارها وأرجائها » .

وحتى تُحل هذه القضية ـ كما قلنا فى الأمم المتحدة ـ لابد من تطبيق المبدأ القرآنى :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومَنْ تضيق به الأرض التى نشأ فيها فليسمح له بالهجرة .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا .. (٣) ﴾ [الرعد]

والرواسى هى جمع « رَاسٍ » وهو الشيء الثابت .

وسبحانه يقول :

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) ﴾ [النازعات]

وهكذا جاء الحق بالحكم الذى شاء أن تكون عليه الجبال ، وفى آية أخرى يأتينا الله بعلة كونها رواسى ؛ فيقول :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الأنبياء]

أى : لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات ؛ لما احتجْنَا إلى الجبال الرواسى كى تُثبِّتها ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة ، وهى عُرْضة للاضطراب ، ولولا الجبال الرواسى لَمَادتْ الأرض .

ولسائل أن يقول : ولكننا نقطع الآن الجبال ، ونأخذ الجرانيت من جبل لنُزيِّن به أرضية بعض المناطق ؛ ونقطع الرخام من جبل آخر لنصنع منه حمامات وأحواضاً ودرجات السلالم ، ونقتطع بعض أحجار أنواع معينة من الجبال ؛ لنستخلص اليورانيوم منها ؟

ونقول : انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق ؛ وحكمته حين دَبَّر ، فهذه الأرض لها محيط ؛ ولها مركز ؛ ولها أقطار ، وكلما اقتربتْ من مركز الأرض فالقطر يَقِلّ .

ومثال هذا هو البطيخة ؛ فأنت إن استخلصتَ القشرة الخارجية لها يكون لديْكَ كرة من القشرة الخضراء ؛ وكرة أخرى من مُكوِّنات البطيخة التى نأكلها ، ولو استخلصتَ كرة أخرى من مكونات الألياف الحمراء التى تتكون منها البطيخة ، لصار عندك كرة أخرى ، ولصار قُطْر الكرة الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء .

وكلما استخلصتَ كُريَّات أخرى من مُكوِّنات البطيخة ؛ صَغُرَتْ الأقطار ؛ لأنك تقترب من مركز الدائرة ، والمحيط الأخضر الذى يحيط بالبطيخة وهو القشرة ؛ يشبه المحيط الذى يوجد على الكرة الأرضية ؛ وهذه القشرة التى توجد حول الكرة الأرضية صُلْبة ؛ أما ما بداخل الأرض وجَوْفها ؛ فهو مُكوَّن من أشياء ومواد متعددة ، منها ما هو سائل ومنها ما هو صَلْب .

وكلما اقتربنا من مركز الأرض ؛ وجدنا ارتفاعاً فى درجة الحرارة ؛ وتدلُّنا على ذلك كُتَل الحُمَم التى تخرج فوَّارة من فُوَّهات البراكين ؛ وهى حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية ؛ وهى حُمَم مُحْرِقة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً ، رحمةً بنا ؛ ذلك أننا حين نبنى بيوتاً ؛ أو نقتطع أحجاراً من الجبال ؛ أو نستخدم مُكوِّنات الجبال فى أى غرض ؛ إنما ننقل بعضاً من مُكوِّنات الأرض من موقع إلى آخر .

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر ؛

فالسائل الذى فى باطن الأرض ينتقل من المنطقة التى زاد عليها الثقل إلى المنطقة التى خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن ، ولو لم يحدث ذلك لَتساقطتْ العمارات الشاهقة التى نراها أثناء دوران الأرض .

والمَثَلُ الذى يُوضِّح ذلك أنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة ، وجعلت البطيخة أو الكرة فى حالة دوران لَطردتْ الكرة أو البطيخة قطعة العجين من على سطحها .

وقد شرح العلماء فى « علم الحركة » ذلك فقالوا : إن كل شىء مستدير يتحرك ؛ إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتى ؛ لأن قطعة العجين أو أىّ شىء نضعه على شىء مستدير يتحرك ؛ تكون له كثافة وثقل على المنطقة التى يوجد فيها ، ويصل هذا الثقل إلى المركز ، ولكى تستمر الحركة الدائرية متوازنة لا بد أن يطرد الشىء المستدير ما فوقه من ثُقْل زائد .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصْفى الكرة الأرضية من أى موقع تتخيله ، متساوياً فى الوزن مع النصف الآخر ، ومهما أخذتَ من مواد ونقلتَها من موقع إلى آخر ، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التى فى بطن الأرض .

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق الذى خلق بتدبير دقيق ، ويكفى أن ننظر إلى عظمة الحق الذى لم يجعل الجبال رواسىَ ليمنع الأرض من أنْ تميدَ بنا ، بل جعل فى الجبال والصحارى ما استنجدنا به حين ضاقت الأرض بنا ؛ فذهبنا إلى الجبال ؛ لنستخرج منها المواد الخام ؛ ونُصدِّرها ؛ ثم نشترى بثمنها القمح .

ونرى من حولنا الصحارى حيث كان المقيمون فيها يلهثون قديماً من العطش ، ولا يجدون شجرة يستظلون بها ؛ فيُفجِّر فيها الحق آبار البترول .

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خير مُسَاوٍ لأى قطاع آخر من الأرض ، وجعل الله لكل أمر زمناً يمكن للبشر أن يستفيدوا من هذا الأمر فى ذلك الزمن .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى الجبال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[1] ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[2] فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ﴾ [فصلت]

أى : أنه سبحانه بارك فى الجبال ، وهى جزء من الأرض ، وشاء أن يُقدِّر الأقواتَ فى الجبال والأرض ؛ ويكفى أن نعلم أن المطر حين يتساقط من السماء على الجبال ؛ فيحمل المطر بعضاً من الطَّمْى من على أسطُح تلك الجبال ، فتتجدد خُصوبة الأرض .

ولو كانت الجبال هَشَّة لذابتْ الجبال من عدد قليل من مرات سقوط المطر ، ولَذابتْ القشرة الخِصْبة التى تُغذِّى النبات حين نزرعه فى الأرض .

---

(١) الند : المثل والنظير ، وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. ۝ ﴾ [إبراهيم] . أى : أمثالاً شركاء . [ القاموس القويم ٢/٢٥٧ ] .

(٢) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه « أقوات » . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ۝ ﴾ [فصلت] . أى أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [ القاموس القويم ٢/١٣٦ ] .

ولكنه سبحانه شاء أنْ تمرَّ الظروف الجوية باختلافها وتنوُّعها فى تتابع يُوفِّـر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتـشقق ؛ فيـصير سطح الجـبـال الصَّلْبـة هَشّـاً لينزل مع المطر ؛ ولـيُـغـذِّى الأرض بالخُصوبة من أجل أن يسـتمر استبـقاء الحياة بإنتاج ما نحـتاجه من نباتات مزروعة .

ونلحظ قوله سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً .. ③ ﴾ [الرعد]

وهنا يجمع الحق بين الرواسى وهى الثـوابت ، وبين الأنهار وهى التى تحمل الماء السائل ، وهذا جَمْعٌ بين الأضداد .

والنهر يُطلق على ما يحـمل المياه العَذْبة ؛ أما البحـر فهو المُكوَّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضتَ أنهار الدنيا كلها ؛ ستجد أن مجـاريها تصـبُّ فى البحـار ، وهذا دليل على أن منسوب النهـر أعلى دائماً من منسوب البـحـر ، ولو كان الأمر بالعكس ؛ لَطَغى مـاء البحر على مياه النهر ، ولَمَا استطعنا أن نشرب أو نزرع .

ولذلك شاء الحق سـبحانه أن يجعل المـاء العَذْب هو الأعلى ؛ لأن له مهمة يُؤدِّيها قبل أن يصُبَّ فى البحر . أقول ذلك حتى نعلم الحكمة فى قول الحق سبحانه :

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[1] لاَّ يَبْغِيَانِ ⑳ ﴾ [الرحمن]

---

(١) البرزخ : الحاجز بين الشيئين ، فالله تعالى جعل بين البحرين حاجزاً من الأرض يحجز كلاً منهمـا فى مجراه فلا يبـغى ولا يطغى على الآخر ، فهو يمـزجهما حـين يلتقيان فـلا يبقى العـذب عذباً لكن بينهـما من الأرض برزخ قـبل التقـائهمـا يحفظ كـلاً منهـما فى مـجراه . [ القاموس القويم ١/ ٦٣ ] .

ومن العجيب أن البرزخ الذى يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر فى مياه البحر بما يُحقِّق سهولة فى هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطىء البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم شاطىء النخيل ؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل فى هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العَذْب من هذا المكان الذى يوجد على البحر ؛ وقد تكون له جداول عذبة .

فسبحانه القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ[1] فِى الأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الزمر]

ونحن فى الريف نجد من يحفر بئراً ويكون ماؤه عَذْباً ؛ وآخر يحفر بئراً ويكون ماؤه مالحاً . وهذا دليل على أن الماء فى بطن الأرض غير مختلط ، بل لكل ماء مسارب[2] تختلف باختلاف نوعية المياه .

ويُرتِّب الحق سبحانه فى نفس الآية مجىء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت ـ الجبال ـ كمصدر للغرْيَن[3] وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التى تحمل الماء اللازم للرى ، وهكذا يكون مجىء الثمرات أمراً طبيعياً .

---

(١) ينابيع : جمع ينبوع . وهو من نبع الماء إذا جرى من العين ، أى : تفجَّر . واليَنبوع : الجدول الكثير الماء . [ لسان العرب ـ مادة : نبع ] .

(٢) السرب : الطريق والمسلك . [ لسان العرب ـ مادة : سرب ] .

(٣) الغرين : ما بقى فى أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [ لسان العرب ـ مادة : غرن ] .

والثمرة كما نعلم هى الغاية من أى زرع .

وفى نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣) ﴾ [الرعد]

ويستعمل البعض كلمة « زوج » ويراد به شيئان كقولنا « زوج أحذية » مع أن التعبير الدقيق يقتضى أن نقول « زوجان من الأحذية » كتوصيف لفردة حذاء يُمْنَى وفردة حذاء يُسْرَى ؛ لأن كلمة « زوج » مفرد ، وتستخدم فى الشيء الذى له مِثْل ؛ ولذلك نجد العدد الفردى والعدد الزوجى ؛ والعدد الزوجى مُفْرد له مثيل ؛ وفى الإنسان هو الذكر والأنثى .

وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات]

ويخطيء الناس أيضاً فى فهم كلمة التوأم ، ويظنون أنها تعنى الاثنين اللذين يولدان معاً ، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذى يُولَد مع آخر ، ويقال لاثنين معاً «التوأمان » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٣) ﴾ [الرعد]

ولم يخلق الحق سبحانه أىَّ شيء إلا وشاء له أن يتكاثر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وكُلٌّ تكاثر إنما يحتاج إلى زوجين ، وكنا نعتقد قديماً أن التكاثر يحدث فقط فى النبات ؛ مثلما نُلقِّح النخلة بالذَّكَر ، وفى الحيوان يخصب الفَحْل الأنثى ، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهرباء ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير ، وكل ما قدمه العلم من كشوف يؤيد صدْقه سبحانه :

﴿ سبْحَانَ الَّذى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُغْشِى[1] اللَّيْلَ النَّهار .. (٣) ﴾ [الرعد]

أى : أن تأتى الظُّلْمة على النهار فتُغطيه ؛ وهو القائل فى موقع آخر من القرآن :

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وذلك تحقيقاً لمشيئته التى قالها :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً[2] .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

وإنْ سأل سائل : هل الليل هو الذى خُلِقَ أولاً أم النهار ؟

أقول : نحن نرى الآن الليل والنهار ، كُلٌّ منهما يُؤدِّى مُهِمَّته فى نصف ما فى الكرة الأرضية ، وكل منهما يخلف الآخر ، ولا بد أن الأمر كذلك من أول الخلق .

---

(١) أى : يجعل الليل يَغْشَى النهار ويغطيه بظلامه . [ القاموس القويم ٢/٥٥ ] .

(٢) الخلفة : اسم مصدر بمعنى الاختلاف ، أو مصدر خلف : جاء بعده ليحل محله . أى : أن الليل والنهار يختلف كل منهما عن الآخر طولاً وقصراً ، أو يخلف كل منهما الآخر ويأتى بعده . [ القاموس القويم ١/٢٠٦ ] .

فإنْ كان سبحانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفى مواجهتها الشمس ، لَكان النهار هو الأسبق فى الخَلْق ، وإنْ كان قد خلق الشمس غير مواجهة للأرض ؛ يكون الليل هو الذى سبق النهار فى الخَلْق .

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً فى سورة يس حين يقول :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

وكان العرب قديماً يظنُّون أن الليل هو الذى سبق النهار فى الخَلْق ؛ لأنهم كانوا يُؤرِّخون الشهور بالقمر ؛ فيدخل الشهر بليله لا بنهاره ، ونحن نعلم أن رمضان يأتينا بأول ليلة فيه .

وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قَدْر معارفهم ، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجِدا فى وقت واحد بعد أن وضحتْ لنا أن صورة الأرض كروية ، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك ، فما واجه الشمس كان نهاراً ؛ وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً ، ويخلف كل منهما الآخر .

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان فى آنٍ واحد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الرعد]

أى : أن على الإنسان مسئولية التفكُّر فيما يراه من حوله ليصل إلى لُبِّ الحقائق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ(١) وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾

هذه الآية جاءت بشىء من التفصيل لقول الحق سبحانه فى أواخر سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وتلك آية تنضم إلى قوله تعالى :

﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

وتنضم إلى :

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وتنضم إلى قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

---

(١) الصِّنْو ( بكسر الصاد وضمها ) : المِثْل ، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد ، قيل لكل واحد منهما صنو . والجمع صنوان ( بضم الصاد وكسرها ) .
[ القاموس القويم ١/ ٣٨٤ ] .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

نجد أننا لا نستطيع أن نعرفها بأنها التى يعيش عليها أمثالنا ؛ تلك هى الأرض ، ولو أردنا تعريفها لأبهمناها ، فهى أوضح من أن تُعَرَّف .

وكلمة « قطَع » تدلُّ أول ما تدلُّ على « كل » ينقسم إلى أجزاء ، وهذا الكُلُّ هو جنس جامع للكلية ؛ وفيه خصوصية تمييز قطع عن قطع .

وأنت تسمع كلام العلماء عن وجود مناطق من الأرض تُسمَّى حزام القمح ، ومناطق أخرى تُسمَّى حزام الموز ؛ ومناطق حارة ؛ وأخرى باردة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

هو قول يدل على الإعجاز ؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً منها تناسب الطقس الذى توجد فيه ؛ فزراعة الذرة تحتاج مناخاً معيناً ؛ وكذلك زراعة الموز .

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، لا بل هى تربة مناسبة للجو الذى توجد به .

ومن العجيب أن فيها الأسرار التى يحتاجها الإنسان ؛ هذا السيد الذى تخدمه كل الكائنات ، فليست الأرض سائلة فى التماثل ؛ بل تختلف بما يناسب الظروف ، فهناك قطعة سبخة لا تنبت ؛ وأخرى خصبة تنبت .

بل وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ؛ ومن قطعة إلى أخرى ؛ فثمرة الجوافة من شجرة معينة فى منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة فى منطقة أخرى ؛ والقمح فى منطقة معينة يختلف عن القمح فى منطقة أخرى ؛ ويقال لك « إنه قمح فلان » .

ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقَى بماء واحد .

ويقول العلماء البعيدون عن منطق السماء : « إن السبب فى الاختلاف هو عملية الاختيار والانتخاب » . وكأنهم لا يعرفون أن الاختيار يتطلب مُخْتاراً ، وأن يكون له عقل يُفكِّر به ليختار ، وكذلك الانتخاب فهل البُذَيْرات تملك عقلاً تُفكِّر به وتختار ؟ طبعاً لا .

ويقولون : إن النبات يتغذَّى بالخاصية الشعرية ، ونعلم أن الأنابيب الشعرية التى نراها فى المعامل تكون من الزجاج الرفيع ؛ وإذا وضعناها فى حوض ماء ، فالماء يرتفع فيها على مستوى الإناء .

وإنْ صدَّقْنا العلماء فى ذلك ، فكيف نُصدِّقهم فى أن شجرة ما تأخذ ماءً مثل الشجرة الأخرى ؛ وتنتج كل منهما نفس الثمار ؛ لكن ثمار شجرة تختلف عن الأخرى فى الطَّعْم ؟

ونقول : إن كل شجرة تأخذ من الأرض ما ينفعها ؛ ولذلك تختلف النباتات ، ويحدث كل ذلك بقدرة الذى قَدَّر فهدى .

وهكذا نرى الأرض قطعاً متجاورات ؛ منها ما يصلح لزراعة تختلف عن زراعة الأرض الأخرى .

وقد يقول بعض من الملاحدة : إن هذا الاختلاف بسبب الطبيعة والبيئة .

وهؤلاء يتجاهلون أن الطبيعة فى مجموعها هى الشمس التى تعطى الضوء والحرارة والإشعاع ، والقمر أيضاً يعكس بعضاً من الضوء ، والنجوم تهدى مَنْ يسير فى الفَلاَة[1] ، وتيارات الهواء تتناوب ولها مسارات ومواعيد .

ورغم كل ذلك فهناك أرض خِصْبة تنتج ، وأرض سبخة لا تنتج ، وأرض حمراء ؛ وأخرى سوداء ، وثالثة رملية ، وكلها متجاورة .

لا بد إذن من وجود فاعل مختار يأمر هذه أمراً مختلفاً عن تلك .

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. (٤) ﴾ [الرعد]

وجاء الحق سبحانه هنا بالمُرَفِّهات أولاً ؛ فتحدث عن الفاكهة ؛ ثم تحدث عن الزرع الذى منه القُوت الأساسى ، ونحن فى حياتنا نفعل ذلك ؛ فحين تدخل على مائدة أحد الكبار ؛ تجد الفاكهة مُعدَّة على أطباق بجانب المائدة الرئيسية التى يُقدَّم عليها الطعام .

ويأتى الحق سبحانه بعد الأعناب والزَّرْع الذى منه القُوت الضرورى بالنخيل ، وهو الذى ينتج غذاء ، وقد يكون التمر الذى ينتجه تَرَفاً يتناوله الإنسان بعد تناول الطعام الضرورى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. (٤) ﴾ [الرعد]

---

(١) الفلاة : القفر من الأرض التى لا ماء بها ولا أنيس . والفلاة : المفازة . وقيل : هى الصحراء الواسعة . [ لسان العرب ـ مادة : فلا ] .

يتطلب منّا أن نعرف ما الصنوان ؟ ونجد الرسول ﷺ يقول : « العم صنْو أبيك»[1] أى : أن الصِّنْو هو المِثْل .

وبهذا يكون معنى الصِّنْوان هو المِثْلان . ونرى ذلك واضحاً فى النخيل ؛ فنرى أحياناً أصلاً واحداً تخرج منه نخلتان ؛ أو ثلاث نخلات ؛ وأحياناً يخرج من الأصل الواحد أربع أو خمس نخلات .

ويُطلق لقب « الصنوان » على الأصل الواحد الذى يتفرع إلى نخلتين أو أكثر ؛ فكلمة « صنوان » تصلح للمثنى والجمع ، ولكنها فى حالة المثنى تُعامل فى الإعراب كالمثنى ؛ فيقال « أثمرتْ صنوان » و « رأيت صنوين » أما فى حالة الجمع فيقال « رأيت صنواناً » و « مررْتُ بصنوان » . والمفرد طبعاً هو « صِنْو » .

ويقول سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

**﴿ وجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ .. (٤) ﴾** [الرعد]

ومن العجيب أن كل شجرة تأخذ عَبْر جذورها كمية من الماء والغذاء اللازم لإنتاج ثمارٍ ذات شكل وطَعْم مختلف .

وهذا ما جعلنا نقول من قَبْلُ : إن افتراضات العلماء المتخصصين فى علوم النبات عن أن النباتات تتغذّى بخاصية الأنابيب الشعرية هو افتراض غير دقيق .

فلو كان الأمر كذلك لأخذت الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه ( ٩٨٣ ) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لعمر رضى الله عنه « يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده ( ٣٢٢/٢ ) .

المواد التى أخذتها الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات آخر . والأمر ليس كذلك ، فكل نبات يأخذ من الأرض ما يخصه فقط ، ويترك ما عدا ذلك .

ذلك أن الثمار لكل نبات تختلف ولا تتشابه ؛ بل إن الشجرة الواحدة تختلف ثمارها من واحدة إلى أخرى .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك تنتقى من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقى من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروقُ لك ؛ وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة .

وحين تذهب لشراء الفاكهة ؛ فأنت تشترى حسب موقفك من الادخار ؛ فإنْ كنتَ تحب الادخار فسوف تشترى الفاكهة التى من الدرجة الثانية ؛ وإذا كنت تحب أن تستمتع بالطيب من تلك الفاكهة فسوف تشترى من الفاكهة المتميزة .

وأتحدى أنْ يقف واحد أمام قفص للفاكهة ، وينتقى الثمار غير الجميلة الشكل والرَّوْنق[1] ، بل يحاول كل إنسان أن يأخذ الجميل والطيب من تلك الفاكهة ، وحين يدفع ثمن ما اشترى سنجده يدفع النقود الورقية القديمة التى تُوجد فى جيبه ، وسيحتفظ لنفسه بالنقود الجديدة .

وهذا الموقف يغلب على مواقف أى إنسان ، فهو مُقبل دائماً على رَفْض أخذ السيء ؛ وخائف دائماً على التفريط فى الحَسَن .

---

(١) الرونق : الصفاء والحسن . [ لسان العرب ـ مادة : رنق] .

والحق سبحانه يقول :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ .. (١٠٠) ﴾ [الإسراء]

وأنت لا تجد فى الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً فى الطَّعْم من نوع إلى نوع ؛ كذلك تجد اختلافاً فى طريقة تناولها ؛ فلا أحد منَّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أن نُخرج منها النواة ؛ ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونخرج ما فى قلب حَبَّة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المشْمشة من بعد ذلك .

فكل ثمرة لها نظام خاص ؛ وليست مسألة ميكانيكية فى عطاء الله لثمار متشابهة ؛ بل هناك اختلاف ، ويمتد هذا الاختلاف إلى أدقِّ التفاصيل ؛ لدرجة أنك حين تتناول قطْفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها .

ونحن لا نُفضِّل بعضاً من الفاكهة على البعض الآخر فى الأُكل فقط ، بل نُفضِّل فى الصنف الواحد بعضاً من ثماره عن البعض الآخر .

وحين تقرأ :

﴿ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ .. (٤) ﴾ [الرعد]

فاعلم أنه لا يوجد شىء أو أمر مُفضَّل على إطلاقه ، وأمر آخر مفضول على إطلاقه ، فما دُمْنَا نُفضِّل بعضه على البعض الآخر ؛ فهذا يعنى أن كلاً منهما مُفضَّل فى ناحية ، ومفضول عليه فى ناحية أخرى .

والمثل الواضح أمامنا جميعاً أننا حين نجلس إلى مائدة عليها ديك رومى قد تجد يدك تتجه إلى طبق « المخلل » قبل أن تمتدّ يدك إلى الديك الرومى ؛ لأن « نفسك » قد طلبتْه أولاً ، فلا نقُلْ : إن هناك

شيئاً مفضولاً عليه طوال الوقت ، أو شيئاً مفضلاً كل الوقت .

وكذلك الناس ؛ إياك أن تظن أن هناك إنساناً فاضلاً على إطلاقه ؛ وآخر مفضولاً على إطلاقه ؛ بل هناك إنسان فاضل فى ناحية ، ومفضول عليه فى ناحية أخرى .

والمَثَل : هو صاحب السيارة الفارهة ؛ ثم ينفجر إطار سيارته ؛ فيتمنى أن يرزقه الله بمَنْ يمرُّ عليه ليقوم بتغيير إطار السيارة ؛ فيمرُّ عليه هذا الإنسان صاحب الملابس غير النظيفة بما عليها من شحوم ؛ فيكون هذا الإنسان أفضل منه فى قدرته على فَكِّ الإطار المنفجر بالإطار السليم الاحتياطى .

وهكذا نشر الله الفضل على الناس ليحتاج بعضهم لبعض ؛ ولذلك أقول : حين تجد نفسك فاضلاً فى ناحية إياك أنْ تقعَ فى الغرور ؛ واسأل نفسك : ما الذى يَفْضُل عليك فيه غيرك ؟

وتذكَّر قول الحق سبحانه :

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يُوزِّع الفضل بين الناس ، ليحتاج كل منهم الآخر ، وليتكامل المجتمع . وكذلك وَزَّع سبحانه الفضل فى الأطعمة والفواكه والثمار ، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة ؛ فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح ؛ فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارت فى تقدير الموازين والتبادل هى الأفضل ، وكل إنسان يمكن أن يجد ذلك فيما يَخصُّه أو يُحبه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ ﴾ [الرعد]

ولذلك نجد الإنسان وهو يُلوِّن ويتفنَّن في صناعة الطعام ، ويختلف إقبال الأفراد على الأطعمة المُنوَّعة ، وقد تجد اثنين يُقبلان على لحم الدجاج ؛ لكن أحدهما يُفضِّل لحم الصدر ؛ والآخر يُفضِّل لحم « الوِرك » ، وتجد ثالثاً يُفضِّل لحم الحمام ؛ وتجد رابعاً يفضل تناول السمك .

بل إنك تجد اختلافاً في طريقة تناول مَنْ يحبون السمك ؛ فمنهم مَنْ يحب أكل رأس السمكة ، ومنهم مَنْ يحب لحم السمكة نفسها ، ولا أحد يملك معرفة السبب في اختلاف الأمزجة في الانجذاب إلى الألوان المختلفة من الأطعمة .

وحين تتأمل تلك المسائل قد يأتي إلى خاطرك قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. ۝٢٨ ﴾ [البقرة]

والسؤال هنا من الله للتعجُّب ؛ والتعجُّب عادة يكون من شيء خَفِي سببه ، فهل يَخْفَى سبب على الله ليتعجب ؟

طبعاً لا ، فسبحانه مُنزَّه عن ذلك ، وسبحانه يعلم سبب كفر الكافرين ؛ لكنه ينكر عليهم أسباب الكفر .

والمثَلُ من حياتنا - ولله المَثَلُ الأعلى - فأنت تجد نفسك وأنت تنطق بكلمة « كيف تسُبّ أباك ؟ » لإنسان يوجه كلمات جارحة لوالده ؛ فتتعجب لتُنكر ما فعله هذا الإنسان .

وكذلك القول : كيف تكفرون بالله ؟ لأن الكفر شيء لا يتأتى من عاقل . وكان لنا شيخ هو فضيلة العالم أحمد الطويل ؛ وكان يحدثنا عن شيخ له حين كان يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

كان يقول : إن الخطاب هنا عام لكل إنسان ؛ لأن الحق بعدها يأتي بالقضية العامة :

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا القول للعموم . وكان شيخنا يحكي عن شيخه أنه حدثهم أن إنساناً كان مُسرفاً على نفسه ؛ ثم انصبَّتْ عليه الهداية مرة واحدة ؛ ورآه كل مَنْ حوله وهو مُقْبل على الله ؛ فسألوه عن سبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس في بستان ، ثم رَاقَ لي عنقود من العنب ؛ فقطفتُ العنقود ، وأخذتُ أتأمل فيه ؛ فوجدت غشاءً رقيقاً شفافاً ـ وهو قشرة حبة العنب ـ يشفُّ عما تحته من لحم العِنبة الممتلىء بالعصير .

وحين وضعتُ حبة العنب في فمي ؛ صارت ماء رطباً ؛ وأخذني العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جَوِّ شهر بؤونة ؛ ثم وجدت بذرة الحبة ولها طَعْم المسْك ؛ فلما غمرني السرور من طَعْم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بي : « كيف تكفر بالله وهو خالق العنب ؟ » فهتفت : آن يا رب أن أُومن بك .

وكل منَّا له أن ينظر إلى شيء يعجبه ؛ وسيجد الشيء كأنه يقول له : كيف تكفر بالله وهو خالقي ؟ وهكذا سنجد كل إنسان وهو

مُـخاطب بهـذه العبـارة ، لأنه ما مـن كائن إلا وله شىء يعـجبـه فى الكون .

وهكذا نفهم معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ .. (٤) ﴾ [الرعد]

ونجـد أى شىء هو فاضل فى وقت الـحاجـة إليه وطلبـه ؛ وكل شىء مَفْضُول عليه فى وقت ما ؛ وإنْ كـان فاضلاً عند مَنْ يحتاجه . ونجد أن التفضيل هنا عند الأُكْل .

والأُكل هو ما يُؤكَل ؛ لا الآن فقط إنما ما يؤكل الآن أو بعد ذلك، وسبحانه القائل :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ[1] فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ[2] .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

وكذلك قال :

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نجد أن الأُكـل مقصـود به ما يُؤكل الآن ، ومـا بعد الأكل أيضاً .

---

(١) الوابل : المطر الغزير . وبل المطر : كثر وعَظُم قَطْره . [ القاموس القويم ٢/٣١٨ ] .

(٢) الطَّل ( بفتح الطاء ) : المطر الخفيف يكون له أثر قليل ، لـكنه يقى النبات شر الظمأ . قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة] . فإن لم يصب الربوة أو الحديقة وابل يسقـيها ويرويهـا فإنه يصـيبهـا طل ، فهى محـفوظة من الظمأ دائـماً . [ القامـوس القويم ١/٤٠٦ ] .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ ﴾ [الرعد]

وبعض الناس يظنون أن العقل يعنى أنْ يمرحَ الإنسان فى الأشياء ، وأنه يعطى الإنسان الحرية المطلقة ، ومثل هذا الظن خاطىء ؛ لأن العقل جاء ليُبصِّر الإنسانَ بعواقب كُلِّ فعل ونتائجه ، فيقول للإنسان : « إياك أنْ يستهويك الأمر الفلانى لأن عاقبته وخيمة » . ومن مادة العين والقاف واللام عقل . ويقال : عقلْتُ البعير.

ومن مهام العقل أنْ يُفرز الأشياء ، وأنْ يفكر فيها ليستخرج المطلوب ، وأنْ يتدبر كل أمر ، فعمليات العقل هى الاستقبال الإدراكى والبحث فيه لاستخلاص الحقائق والنتائج ، وأن يتدبر الإنسان كل أمر كى يتجنب ما فيه من ضرر .

والمثل : هو ما توصَّل إليه بعضٌ من العلماء من اكتشاف لأدوية يستخدمونها لفترة ما ، ثم يعلنون عن الاستغناء عنها ؛ لأن آثارها الجانبية ضارة جداً ؛ وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا الأمر جيداً ؛ وخَطَوْا خطوات إلى ما ليس لهم به كامل العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④ ﴾ [الرعد]

نلحظ فيه توجيهاً بالتعاون بين العقول ، لتبحث فى آيات رَبِّ العقول ؛ فلا يأخذ أحد قراراً بعقله فقط ؛ بل يسمع أىَّ منَّا لرأى عقل ثانٍ وعقل ثالث ورابع ؛ ليستطيع الإنسان تدبُّر ما يمكن أنْ يقع ؛ ولتتكاتف العقول فى استنباط الحقائق النافعة التى لا يتأتَّى منها